أثر اللغة في تشكل الوعي الثقافي في المجتمع العربي

د. فاطمة بنت ناصر المخيني

تقديم:

تنصرف هذه المداخلة إلى مقاربة العلاقة بين اللغة والثقافة في النسق الاجتماعي العربي، وتحاول الوقوف عند المنطلقات والأسس الحضارية لهذا التلاقي بين النسق اللغوي والنسق الثقافي، وتشخيص أسباب النجاح والإخفاق في هذ التلاقي وتعقب أثره في الوعي الثقافي للمجتمع العربي.

تحاول هذه المداخلة حينئذ أن تجيب عن الأسئلة الآتية:

ما مسوغات التقاطع بين النسق اللغوي والنسق الثقافي؟

ما المرتكزات المعرفية والمنهجية لتشكل الوعي الثقافي؟

تعد العلاقة بين اللغة، والثقافة، والمجتمع علاقة وطيدة، وموضوعا كبيرا؛ حيث أكد على ذلك دوكروت وتودوروف ١٩٧٩: " هناك علاقة بين اللغة والمجتمع في معظم الأوقات، على الرغم من الانفصال الشديد بين هذين الكيانين، فإن أوجه الارتباط بينهما شديد جدا. إذ لا مندوحة من دراسة أحدهما من خلال الآخر في إطار تبادل وتأثير وقبول أثر لمعرفة السبب" ١.

لقد درست العلاقة بين اللغة، والثقافة، والمجتمع، من قبل علماء الاجتماع، والباحثين في المسائل الثقافية عبر المجتمعات، وبين المجتمعات. باعتبار أن اللغة هي وسيلة توصيل المعرفة الثقافية لتحقيق التواصل بين عناصر المجتمع، وأداة لتبليغ المعارف التداولية الكونية، والعامة، والخاصة.

وكثيرا ما تتوتر العلاقة ويحدث غموض بين مفهوم اللغة والمعرفة اللغوية، من جهة ؛ وبين الثقافة بمفهومها السوسيولوجي، والثقافة بمفهومها الأنتروبولوجي الرمزي القائم على دراسة حفريات المعرفة الثقافية من مآثر، ومعمار، وتقاليد ، وعادات.٢

لذلك نطرح السؤال: إلى أي حد أسهمت اللغة العربية في تشكل هذا الوعي؟ وما المعوقات التي يمكن أن تعترض سبيله في البناء الثقافي للمجتمع؟

١- اللغة العربية بين الانتساب والانتماء:

للغات السامية دور حضاري كبير بالنسبة إلى متكلميها، حيث يتجاوز هذا الدور التواصل البسيط فحسب، إلى الاعتقاد في قدسيتها، ودورها في الحفاظ على الهوية المجتمعية، والدور الحضاري الكبير الذي يخلدها، ويؤثث لمجتمعها، إذ يتجاوز هذا الدور بكثير مجرَّد مهمَّة التوصيل، والفهْم والإفهام، وقضاء الحاجات اليوميَّة، مع التسليم بأهميَّة هذه الأشياء في حياة البشر.

فاللغة في شكلها الذي يَتكوَّن من بِنيَة كلامية مُنتَقاة، تلقى العناية على يد أبنائها جِيلاً بعد جِيل في تشكيل أصول الصحَّة والجمال بها، وتستغلُّ بِنيَاتها الصحيحة الجميلة تلك أدوات لحمل الفكر الراقي والمشاعر السامية من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى جماعة، ومن جيل إلى جيل، وتَزداد اتِّساعًا على مستوى المكان، وثراءً على مستوى الزمان، هذه اللغة تَتجاوَز مهامُّها المَنُوطَة بها مرحلة مجرَّد قَضاء الحاجات، والتعبير عن الرغبات - إلى مرحلة بِناء الأفراد والجماعات، وتشييد المعارِف والحضارات.

واللغة العربية في ماضيها المجيد وتراثها العريق تأتي في مُقدِّمة اللغات التي نجحَتْ في القيام بدورها الحضاري الرَّفِيع، وارتَقَتْ بأمَّة من مجتمع الصحراء المتوارِي لتكون هي ولغتها قائدة الحضارة والمعرفة على مستوى العالم قرونًا عديدة مُتواليَة، ويَكفِي في هذا المقام أن نتذكَّر أنها شَرُفَتْ بحمل آخِر رِسالات السماء إلى الأرض بلسان عربي مُبِين.

لكنَّ اللغة في حاضِرها اليوم في حاجة إلى أن تَتذَكَّر، وأن تستجمع قُواها لمواجهة

متطلَّبات الحاضر والمستقبل في المجال المعرفي والحضاري، وأن تنتهي بفضْل وعي وهِمَّة أبنائها للقيام بدورها الحقيقي في المحافظة على الهُوِيَّة، واستعادة بعض مَلامح الوجه المهدَّدة بالضَّيَاع.٣

ولنتذكَّر أنَّنا في عصر تَلعَب فيه حالة لغات الشعوب٤ – قوةً أو ضعفًا – دورًا مهمًّا في المحافظة على كِيان الأمَّة، أو التفريط فيه، وتركه عُرضَةً لتقلُّبات الأهواء والأحداث من حوله، ولنتذكَّر – أيضًا – أنَّنا في عصر تَحرِص فيه اللغات الكبرى المُسَيطِرة على التهام اللغات المُنافِسة لها، أو إضعافها وتفتيتها، وأنها تلجأ في سبيل تحقيق ذلك الهدف إلى وسائل علميَّة وتعليميَّة وإعلاميَّة، تَمَّ إعدادُها ودراستها بدقَّة شديدة، وتَوازَنَتْ فيها المُغريات والعُقُوبات، وتَمَّ دسُّ السمِّ بإحكام في معظم الأحايين، في آنية العسل؛ لكي يَنجَذِب إلى الهدف المرسوم – بوعي أو بلا وعي – أبناءُ اللغة المستهدَفة أنفسُهم، ويكونوا أكبر عَوْنٍ على تحقيق الغاية المُرادَة.٥

٢- اللغة العربية: بين تحديات الثقافة المجتمعية وثقافة التحديات الكونية المعاصرة

تسعى كل الكيانات الدولية الكبرى إلى توطين معرفتها، ونقل آليات اشتغالها لتحقيق عدد من الأهداف الاستراتيجية عبر اللغات ، والثقافات، والمجتمعات. وعلى رأسها مجتمعات اللغة العربية بوصفها أهدافا استراتيجية كونية. حيث تستهدف اللغة العربية بوصفها كلمات و قواعد و تراكيب، وتراثًا شعريًّا أو نثريًّا، ورمزيا، لذلك تسعى هذه القوى إلى السَّيْطَرة على مُقَدَّرات أبناء هذه اللغة وثرواتهم، واستقلال ذواتهم، وصَلابة قراراتهم؛ لكي يكونوا لقمة سائغة في خدمة عجلات الإنتاج ومَطامِع التوسُّع، وتحقق الأمن لدى أصحاب اللغات والأهداف الأخرى.

لقد تعرَّضتْ كثيرٌ من لغات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية للاجتياح أمام قوَّة اللغات الأوروبية الغازية في عصْر التوسُّع الاستعماري بعد الثورة الصناعيَّة، مُمَثَّلة في اللغات الإنجليزية والفرنسية على نحو خاصٍّ، ومِن ورائها الإسبانية والبرتغالية والألمانية، وأمام هذا الاجتياح سقطتْ لغات كثيرةٌ، قدَّرَتْها منظمة اليونسكو بأكثر من ثلاثمائة لغة، وضَعُفَتْ أخرى وتصدَّعت أركانها، وهم يَتَوقَّعون لها مَزيدًا من الضعف الذي قد يؤدِّي إلى السقوط، خاصَّة إذا ساعَدَهم أبناء هذه اللغات أنفسهم على تحقيق الهدف، وهم يضَعُون اللغة العربية في مصافِّ هذه الطائفة الأخيرة، ويُقَدِّرون لها مدًى زمنيًّا يَتَوقَّعون أن تتحقَّق خلاله أهدافهم، حماها الله وحفظَها، وفتَح عيون أبنائها على الخطر المُحِيط بهم.٦

لكن اللغة العربية – والحمد لله – صمدت وقاومتْ، وهي تستطيع أن تبذل المَزِيد من الصمود في الحاضر، والتأهُّب للمستقبل، واستعادة أمجاد الماضي، إذا قام أبناؤها – كلٌّ في مجال قدراته واهتماماته وواجباته – بما ينبَغِي عليه القيام به.٧

لقد ساعدت اللغة العربية – منذ نزل بها القرآن على نحو خاصٍّ – هذه الأمَّةَ على تشكيل هُوِيَّتها، وعلى التفتُّح على ثقافات العالم السابقة عليها والمُعاصِرة لها، وقد كان شعارها في التفتُّح، ذلك الأثر القائل: "ليست العربية من أحدكم بأبيه ولا بأمِّه، وإنما العربية لسان، فمَن تكلم العربية، فهو عربي"، قال صاحب "كنز العمَّال": "رواه ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبدالرحمن مرسلاً"، ولقد فتح هذا الشعار الباب أمام كلِّ الأجناس والأعراق، لتحمل شرف الانتماء إلى العربية، من خِلال تعلُّم اللسان العربي، فتسابَق أبناء الحضارات والأعراق الأخرى ممَّن عاشوا في كنف الإمبراطورية الإسلامية إلى إجادَة العربية، والتسابُق في الإبداع ووضْع المؤلَّفات بها، وشارَكُوا في وضْع أسس قواعد مختلف العلوم العربية والإسلامية بها، وأصبحت أسماؤهم رموزًا بارِزة في بعض فروع المعرفة، كما كان اسم (سيبويه) في النحو، و(الجرجاني) في البلاغة، و(البخاري) في الحديث، و(الزمخشري) في التفسير، وهكذا اتَّسع مفهوم (العربية) وثقافتها لكي تتجاوَز الجنس العربي إلى ثقافة الإمبراطورية الإسلامية التي لم تقتَصِر فقط على علوم اللغة والدين – وإنما امتدَّتْ من خلال اللغة إلى الثقافة العلميَّة الإنسانية في الطب والجراحة، والرياضيات والجبر، والفلك والصيدلة، وظلَّت ترجمات الكتب العربية لأعلام مثل: الزهراوي، وجابر بن حيَّان، وابن الهيثم، وابن النفيس وغيرهم تُشارِك في تمثيل كتب المعرفة العلميَّة في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر، انطلاقًا من اتِّساع المفهوم، وثراء المعرفة، وإثراء اللغة العربية، واستخدامها في المجالات الحيَّة للعلوم والحياة.٨

وقد استطاعت اللغة العربية في فتْرة انطلاقِها وتوسُّعها أن تُمَثِّل نموذج اللغة التي يحرِص المثقَّفون من غير أبنائها، على أن يتحلَّوا بمعرفتها، بل استعارَتْ حروفَها

كثيرٌ من اللغات الأخرى - وخاصَّة اللغات الإسلامية - لكي تكتب بها كلماتها، ومن بينها اللغة الفارسية في إيران وأفغانستان، واللغة الأردية في الهند وباكستان، اللتان كانتا - وما تزالان - تُكتَبان بالحروف العربيَّة، لكن لغات إسلاميَّة أخرى كانت تكتب بالحرف العربي وتخلَّت عن ذلك الحرف؛ نتيجةً للتخطيط المُحكَم لمُحارَبة العربية في القرن العشرين، وفي مقدِّمة هذه اللغات اللغة التركية التي غيَّرت حروفها إلى اللاتينية بعد سقوط الخلافة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتبعَتْها في ذلك اللغات المنتَشرة في سهول آسيا الإسلاميَّة في منطقة تركستان، والتي تَقاسَم النفوذ عليها الصين والاتِّحاد السوفيتي السابق بعد الحرب العالمية، وحاولوا - بتَخطيط مُحكَم وبثورة ثقافية على مَدَى نحو ثلاثين عامًا - إزالة الحرف العربي وتحريم الكتابة به، كما حدث الشيء نفسُه في اللغات الإفريقيَّة التي كانت تُكتَب بالحروف العربية، وعلى رأسها اللغة السواحلية في شرق إفريقيا، والتي ظلَّت تُكتَب بحروف عربية حتى سنة ١٩٦٤، حينما صدر قرار بإزالة الحروف العربية ووضْع اللاتينية مكانها في هذه اللغة[٩]، وحدَث ذلك في اللغات الإسلامية في غرب إفريقيا.

ولقد حاوَلت هذه الحرب أن تمتدَّ إلى داخل اللغة العربية ذاتها؛ فظهرتْ صَيْحات منذ أوائل القرن العشرين، تدعونا إلى أن نكتب - نحن أيضًا - لغتنا العربية بحروف لاتينية؛ بدعوى تسهيل تداوُلها في العالم، وما زلنا نرى زحْف الحروف اللاتينية على واجِهات المحلاَّت في كثيرٍ من مُدُن العالم العربي؛ ممَّا يُشَكِّل ظاهرة سلبيَّة لا تَليق بأمَّة تحرص على أن تكون لها شخصيتها وهُويَّتها المستقلَّة.

إنَّنا ينبغي في الوقت نفسه أن نُشيد بالتجارب العالمية المُعاصرة، التي أدركت أهميَّة "اللغة" في المحافظة على شخصيَّة الأمَّة، أو اتَّخذت خطوات إيجابيَّة في سبيل المحافَظة على قوَّة لغتها، أو إحيائها وتوظيفها بقوَّة في الحياة العلمية والعملية؛ ممَّا ترتَّب عليه إحياء شخصيَّة الأمَّة والمحافظة على قوَّتها، وفي هذا الصَّدَد نقتَبس أولاً بعض أبيات من قصيدة جميلة لشاعر صَقَلية "أجنازيا بوتينا" تحمل عنوان: "لغة وحوار" يقول فيها:

ضع شعبًا في السلاسل
جرِّدهم من مَلابسهم
سُدَّ أفواهَهم
لكنَّهم ما زالوا أحرارًا
وجَوازات سفرهم
والموائد التي يأكلون عليها
والأَسِرَّة التي يَنامُون عليها
لكنَّهم ما زالوا أغنياء
إن الشعب يفتقر ويُستعبَد
عندما يُسلَب اللسان الذي ترَكَه له الأجداد
وعندئذ يضيع للأبد

ونوَدُّ بعد هذا أن نُشير في إيجاز إلى تجربتَيْن عالميتَيْن مرتبطتَيْن بإحياء اللغة المرتَبطة بإحياء الهويَّة أو المحافظة على القوَّة؛ وهما: التجربة العِبريَّة، والتجربة الفرانكفونيَّة:

وأمَّا التجربة العبريَّة الحديثة:

فقد بدأتْ في أواسط القرن التاسع عشر، حين كان اليهود مُوَزَّعين على أكثر من مائة دولة في العالم، وتتحدَّث كلُّ جماعة منهم لغة البلد الذي تَعيش فيه، ولا تُوجَد اللغة العِبريَّة إلا في بيوت العِبادة، وفي بعض عِبارات التخاطُب والمجامَلة، وكانت تُعتَبَر لغة دينية ميتة، وعندما بدأَتْ فكرة إقامة وطنٍ لليهود رفَع أحد مُفَكِّريهم - وهو "إليعازر بن يهوذا" - شعارًا مهمًّا وهو: "لا حياة لأمَّة بدون لغة"، وقرَّر أن يسعى لكي يجعل من العِبريَّة لغة حيَّة على مستوى الكتابة وتدوين المعرفة والتخاطُب في الحياة اليوميَّة، وبدا هذا الهدف عند اليهود أنفسهم صعبًا إن لم يكن مُستَحيلاً، ولكنَّه تمسَّك بفكرته رغم سخريَة أصدقائه منه، وقرَّر الهجرة إلى فلسطين سنة ١٨٨١ مع زوجته وأسرته، وأنشأ أوَّل بيت يهودي تُفرَض فيه اللغة العِبريَّة لغةً للتخاطُب والحديث في كلِّ شؤون الحياة، وساعَدَه على ذلك أفراد أسرته رغم سخريَة كلِّ الناس منه، ولكنَّه ظلَّ متمسِّكًا برأيه عاملاً على إنجاحه أربعين سنة متَّصلة، أسَّس رابطة للمتكلِّمين بالعِبريَّة في فلسطين، وصارَتْ داره منتدى يَتمُّ الحديث فيه بالعِبريَّة، وأصدر صحيفة بالعِبريَّة، وجعَل جزءًا منها مُخَصَّصًا للأطفال، وحرص على أن يُسَمِّي أبطال قِصَصهم بأسماء عِبريَّة، وعكَف على تأليف قاموس كبير للغة العِبريَّة، بالاستعانة بالتُّراث اليهودي واللغات السامية، وابتكار مصطلحات جديدة في كلِّ مجالات المعرفة، وقد استَطاع في حياته أن ينجز منه تسعة أجزاء، وأكمَلَه تلاميذه إلى ستة عشر مجلدًا، وأثمرت دعوته؛ فانتشرت المدارس العِبريَّة في فلسطين، وامتدَّ التعلُّم والتأليف بالعِبريَّة إلى كلِّ المناهج، ثم امتَدَّ إلى الجامعات التي تُدَرِّس كل موادِّها بما في ذلك الطب والهندسة والعلوم بمختلف ألوانها باللغة

العبريَّة، وتُعقَد فيها المؤتمرات على أعلى مستوى بهذه اللغة، مع الاستفادة من تعلُّم اللغات الأخرى؛ لأنهم يُدركون جيِّدًا الفرقَ بين تعلُّم اللغات الأجنبية – وهو أمر مطلوب وضروري لكلِّ حضارة وتقدُّم – وبين التعلُّم باللغات الأجنبية – وهو أمر يقضي على الشخصيَّة واللغة القوميَّة على المَدَى البعيد – ولا يُساعد – كما يقول الباحثون – على تَوطين المعرفة لَدَى الأمَّة.١٠

وامتدَّت تجربة اللغة العبريَّة إلى كلِّ مَناحي الحياة؛ الاقتصادية والاجتماعية، والفنية والسياسية، فأصبحت المؤتمرات تُعقَد بها، وتكتب لافتات المَتاجر والأماكن العامَّة والمنتديات بها، والمسؤولون يُلقُون كلماتهم في أيِّ دولة أجنبيَّة بها، وبهذا الجهد الخارق استَطاعَتْ أمَّة أن تُحيي لغتها من العَدَم، وأن تَحيَا هي بهذه اللغة، ويتشكَّل لها كِيان وهُويَّة.

أمَّا تجربة إنعاش اللغة الفرنسية في العصر الحديث:

فقد تَمَّ التخطيط لها بعد التغييرات السياسية التي حدثت في العالم في القرن العشرين بعد الحربَيْن العالميتَيْن، والتي تراجعَتْ بمُقتَضاها مكانةُ الإمبراطورية الفرنسية لصالح القوَّة الأمريكية المُتعاظِمة، وأصبح نفوذ اللغة الفرنسية الذي كان سائدًا في كثير من أرجاء العالم مُهَدَّدًا بالانحسار، فتشكَّلت في النِّصف الثاني من القرن العشرين رابطة الفرانكفونية من الدُّوَل التي تتحدث الفرنسية، وشكلت مؤسسات علمية ترعى اللغة الفرنسية في العالم، وتُتابِع المتكلِّمين بها، وتبحث عمَّا يعتَرِضهم من مشاكل في سبيل المُحافَظة على لغتهم الأصلية أو المُكتَسَبة، وتعقد المؤتمرات التعليمية والثقافية والعلمية باللغة الفرنسية في مختلف البلدان، وترصد استخدام وسائل الإعلام لها، لتُقدِّم التوصيات – وأحيانًا الأوامر – بعدم شيوع الأخطاء أو المستويات الهابطة في اللغة.

وتضمُّ هذه المؤسسة الفرانكفونية في عضويَّتها كثيرًا من الرؤساء وكِبَار المسؤولين والوُزَراء في الدُّوَل الناطقة بالفرنسية، ومن خلالها يَتِمُّ تَنسيق جهودهم جميعًا لحماية اللغة الفرنسية، والعمل على المَزيد من الانتشار والصحَّة والحيويَّة لها.

إنَّ لُغتنا العرَبيَّة التي تملك مِنْ مُقَوِّمات الصحَّة والحياة والجمال والقابليَّة لاستيعاب مختلف المعارف والعلوم والتعبير عنها – بحاجة إلى أن نَبذُل جميعًا لها من الحماية والرِّعاية ما تستحقُّه، انطلاقًا من جريانها على ألسنَتنا وأقلامنا في مستوياتها المختلفة، بحسب المقام المُناسب، فلا نستَخدِم لغة مُتقَعِّرة في موقف حديث؛ لئلاَّ ينفر الناس منها، ولا نتهاوَن في الوقت ذاته بالخطأ وعدم الدقَّة في التعبير، ونَحرِص على الدعوة إلى شُيُوعها في معاملاتنا الاقتصادية، والالتفات إلى الظاهرة الخطيرة التي تلوِّث وجه المدن العربية بأسماء الرطانات الأجنبية، التي تختَلِط فيها الحروف واللغات اختلاطًا يُسيء إلى شخصيَّتنا، والعمل على تَنميتها في وسائل إعلامنا بطريقة مَدرُوسة ومنهجيَّة هادفة، بدلاً من الفوضى التي تَسُود في كثير ممَّا نقرؤه وما نسمعه وما نُشاهِده، وعلى بذْل خطوات جادَّة لتوسيع مجال اللغة العربية في تدريس العلوم في المدارس والجامعات، وطرْح التساؤل الذي لا بُدَّ منه: لماذا تدرس كلُّ جامعات الدنيا العلوم المتقدِّمة بلُغاتها القوميَّة، إلاَّ نحن في جامعاتنا؟ وهل اللغة البولندية – مثلاً – أكثر قدرة على استيعاب مصطلحات الطب والهندسة من اللغة العربية؟ ولماذا لا نستَفيد من التجارب الرائعة للجامعات السورية في محافظتها على اللغة العربية في تدريس الطب، وتخريجها شريحةً من أفضل الأطبَّاء العرب وأكثرهم نجاحًا حتى في المجتمعات الغربية التي يعملون بها؟ وهل يرتَبِط التقدُّم العلمي بالدراسة باللغة الأجنبية؟ أو بدراسة اللغة الأجنبية والاستفادة منها؟ والتعليم باللغة القومية تَوطين للعلم وتأكيد للهُويَّة.

إن كثيرًا من الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا اليوم ليس من الضروري أن نجد الحلَّ الحاسم لها غدًا، ولكنَّنا مع ذلك نبغي أن نُصِرَّ على طرْحها ومُناقَشتها مناقشة علمية؛ حتى نصل إلى الإجابة المُناسبة التي قد تستَرِدُّ اللغة العربية معها حيويَّتها، وتستردُّ الأمَّة مزيدًا من مَلامح شخصيَّتها وهُويَّتها، وتستردُّ المعرفة مزيدًا من التَّوطين والانتشار الحقيقي بين مختلف طبقات الأمَّة.١١

٣- اللغة العربية بين الفاعلية المجتمعية والتفاعل الثقافي:

اللغة إعادة إنتاج للواقع. إذ يتم إنتاج الواقع مرة أخرى عن طريق اللغة. فالمتكلم يجعل الحدث تجربة اجتماعية، ذات تفاعل لغوي ومن الحدث تأتي الحياة. كل من يسمعه أولا يتقبل الخطاب، ومن خلال هذا الخطاب يستنسخ الحدث. وهكذا، فإن الوضع المتأصل في ممارسة اللغة،

واللغة العربية جزء من هذه السيرورة الجدلية أي التبادل والحوار، لتحقيق فعل الخطاب المجتمعي. وهكذا يحدث فعل الخطاب بوصفه وظيفة مزدوجة: بالنسبة إلى المتكلم، فإنه يمثل الواقع؛ وبالنسبة إلى المستمع، فهو يعيد إنتاج هذا الواقع بالإدراك. هذا يجعل اللغة أداة جيدة للاتصال بين العناصر.١٢

وهنا تنشأ على الفور مشاكل خطيرة سنتركها للفلاسفة، ولا سيما من حيث كفاية العقل في إدراك "الواقع". ويعتقد اللغوي من جانبه أنه لا يمكن أن يكون هناك فكر بدون لغة، وبالتالي فإن معرفة العالم تتحدد بالتعبير الذي يتلقاه. اللغة تستنسخ العالم، لكنها تقدمه إلى المنظمة الخاصة بها. فمن الشعارات والكلام والعقل معا، كما رأى الإغريق. ويرجع ذلك إلى أنها لغة مفصلية، تتألف من ترتيب عضوي للأجزاء، وتصنيف رسمي للأشياء والعمليات. وبالتالي فإن المحتوى المراد نقله يتم تقسيمها وفقا لمخطط لغوي. يتم تكوين "شكل" الفكر من قبل هيكل اللغة. واللغة بدورها تكشف في نظام فئاتها وظيفة الوساطة.بالنسبة إلى كل متكلم عربي يمكن أن تنشأ باعتبارها موضوعا من خلال إشراك الشريك الآخر الذي لديه نفس اللغة، وقد تقاسم نفس الذخيرة من الأشكال، بناء الجملة نفسه، والنطق عينه لتنظيم المحتوى . وكل هذا لتنظيم بنية اللغة، بغية تمثل آليات اشتغالها، والكشف عن وظيفتها. التواصلية بالمعنى المعرفي التداولي.

وفي الواقع ومن خلال اللغة يحدد الفرد والمجتمع تفاعلاتهما المجتمعية والثقافية. وقد عبر الشعراء دائما، وتغنوا كثيرا عن سلطة اللغة ، مما يخلق واقعا وهميا، أي أنيميا الأشياء الجامدة، بإظهار ما لم يتحقق بعد، وإحلال ما قد اختفى. هذا هو السبب في العديد من الأساطير، وجود لشرح أنه في فجر الوقت شيء يمكن أن تأتي من لا شيء، وقد طرحت مبدأ المبدع في العالم فهذا جوهر غير ملموس وسيادي، للكلمة العربية. فالمجتمع ممكن فقط من خلال اللغة. واللغة أيضا هي الفرد نفسه.١٣

هذه القدرة الرمزية للغة العربية هي أساس الوظائف المفاهيمية. الفكر ليس سوى هذه القوة لبناء تمثيلات الأشياء، وتمثلات الكون، والعمل على هذه التمثيلات والتمثلات. وهي رمزية أساسا. والتحول الرمزي لعناصر الواقع أو التجربة إلى مفاهيم هي العملية التي يتم بها تحقيقالتمثل الرشيد للعقل. والتفكير ليس مجرد انعكاس للعالم؛ فإنه يصنف الواقع، وفي هذه الوظيفة التنظيمية يرتبط ارتباطا وثيقا مع اللغة التي قد يميل المرء إلى تحديد آليات اشتغالها من وجهة النظر هذه.١٤

خاتمة:

علاقة اللغة بالثقافة والمجتمع علاقة متينة جدّا فكلاهما تسهم في كينونة الأخرى، وتغذيتها،والتأثير فيها؛ وبالتالي كلاهما لا يكون له وجود إلاّ بوجود الآخر.

إن اللغة بتعريفها البسيط هي وسيلة اتصال بين شخصين أو أكثر، الهدف منها التواصل والتفاهم. ولكي يحدث التفاهم فلابد من الاشتراك في معرفة رموز هذه الوسيلة، وما تحويه من معانٍ سياقية، واجتماعية، وثقافية متفق عليها مسبقا. فاللغة هي منتج إنساني تراكمي، وثقافي أنتجته ضرورة تواصل أهل بيئة واحدة بعضهم ببعض وبما أن اللغة هي نتاج ثقافي تراكمي فإن الثقافة تُضفي بمعانٍ خاصة على كل كلمة، وكل تركيب لغوي يستخدمه أهل اللغة إضافة للمعنى القاموسي. فمعرفة معاني الكلمات، وتراكيب الجمل دونما معرفة المعنى والاستخدام الثقافي السياقي لكل كلمة، وتركيب هي معرفة ناقصة وبالرغم من الاختلافات الكثيرة في تحديد مفهوم اللغة إلاّ أن الكل يُجمع على أنها هي لسان الثقافة وعنوان الحضارة وترجمانها. فاللغة هي القناة التي من خلالها تنتقل العلوم من الأمة وإليها وفيها وعنها، وهي وعاء الفكر وميدان الإبداع.وهي كما يراها أهل الاختصاص وسيلة يبتكرها الإنسان لكي يتكيف مع بيئته من خلال تطوير أساليب الاتصال، والتخاطب؛ فهي بنت البيئة ونبتتها. ولهذا فإن كلمات اللغة ومفرداتها ما هي إلاّ تراكيب بيئية مجردة، ذات أبعاد مفاهيمية متعددة يتوازى عمق المفهوم بها مع عمق المفردة أوالكلمة في البيئة وتتسق هذه التراكيب اللغوية فيما بينها لتؤلف بناءً وإطاراً ثقافياً يؤثر في النظرة العامة للبيئة والفرد والمجتمع.

لائحة المراجع المعتمدة

باللغة العربية

١- أحمد درويش؛ "أهمية اللغة العربية في المحافظة على الهوية وتوطين المعرفة"؛ صحيفة اللغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية؛ تاريخ: ٢٠١٣/١١/٢٣م، ومنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، تاريخ: ٢٠١٤/١٠/٢٦م.

٢- العمايرة، محمد حسن، ٢٠٠٠، الفكر التربوي، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

٣- جميل عيسى الملائكة، اللغة العربية ومكانتها الإسلامية في الثقافة العربية، رقم العدد: ١٠٨٢ الموضوع: أدب وثقافة، ٦.

٤- الصقعة الغضبية في الرد على منكري العربية " لنجم الدين الطوفي الحنبلي (٧٦١هـ) عقد فصلا بعنوان: فصل في الدلالة على فضل علم العربية.

٥- يحيي، توين مرتضى، ٢٠٠٧، أثر العربيّة في ثقافة المسلمين، مجلة: إسهامات اللغة والأدب في البناء الحضاري للأمّة الإسلاميّة، ماليزيا: دار التّجديد للطباعة والنّشْر والتّرجمة.

باللغة الإنجليزية

- Ankerl, Guy (٢٠٠٠) (٢٠٠٠). Global communication without universal civilization, vol.١: Coexisting contemporary civilizations: Arabo-Muslim, Bharati, Chinese, and Western. INU societal research. Geneva: INU Press.
- Arnold, Matthew. ١٨٦٩. Culture and Anarchy. New York: Macmillan. Third edition, ١٨٨٢, available online. Retrieved: ٢٠٠٦-٠٦-٢٨.
- Bakhtin, M. M. (١٩٨١) The Dialogic Imagination: Four Essays. Ed. Michael Holquist. Trans. Caryl Press.
- Barzilai, Gad. ٢٠٠٣. Communities and Law: Politics and Cultures of Legal Identities University of Michigan Press.

المواقع الإلكترونية:

www.alarabiah.org

www.m-a-arabia.com

الهوامش

١- آر.جا أندرو ١٩٦٣"التعليق على أساس علم تشكيل الثقافة الإنسانية" آلان بريان الأنثروبولوجيا الحالية٤: ٣٠١-٣٠٣.،صفحة ٣٠١

٢- الصقعة الغضبية في الرد على منكري العربية " لنجم الدين الطوفي الحنبلي (٧٦١هـ) عقد فصلا بعنوان: فصل في الدلالة على فضل علم العربية (ص/٢٣٣-٢٧٩)

٣- بنديكت، روث Benedict, Ruth. أنماط الثقافة. نيويورك: هوتون ميفلين، Houghton Mifflin١٩٣٤. ص ١٦٥

٤- جميل عيسى الملائكة، اللغة العربية ومكانتها الإسلامية في الثقافة العربية، رقم العدد: ١٠٨٢ الموضوع: أدب وثقافة، ٦.

٥- دابليو سى ميلتزوف ١٩٨٨ W. C. Meltzoff " تقليد الرضع بعد تأخير لمدة اسبوع: الذاكرة طويلة الأمد لأفعال جديدة ومؤثرات متعددة" في علم النفس النمو ٢٤: ٤٧٠-٤٧٦؛ وينظر كذلك: "أهمية اللغة العربية في المحافظة على الهوية وتوطين المعرفة"؛ أ.د.أحمد درويش: ؛ صحيفة اللغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية؛ تاريخ: ٢٠١٣/١١/٢٣م، ومنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، تاريخ: ٢٠١٤/١٠/٢٦م.

٦- تيرنس ديكون ١٩٩٧ Terrence Deacon الأنواع الرمزية: تطوراللغة والمخ نيويوركولندن: دابليو دابليو نورتون، صفحات. ٣٤٧

٧- جميل عيسى الملائكة، اللغة العربية ومكانتها الإسلامية في الثقافة العربية، رقم العدد: ١٠٨٢ الموضوع: أدب وثقافة، ٦.

٨- بيبلر، بول. ٢٠٠٣ Baepler, Paul. " العبيد البيض، الأسياد الأفارقة". حوليات الأكاديمية الأميركية للعلوم السياسية والاجتماعية، ص ٥٨٨

٩- يحيي، توين مرتضى، ٢٠٠٧، أثر العربيّة في ثقافة المسلمين، مجلة: إسهامات اللغة والأدب في البناء الحضاري للأمّة الإسلاميّة، ماليزيا: دار

التّجديد للطباعة والنّشْر والتّرجمة.ص ٢٦-٢٩

١٠- تيرنس ديكون Terrence Deacon١٩٩٧ الأنواع الرمزية: تطور اللغة والمخ نيويوركولندن: دابليو دابليو نورتون، صفحات. ٣٩٧-٤٠١، وينظر كذلك: "أهمية اللغة العربية في المحافظة على الهوية وتوطين المعرفة"؛ أ.د.أحمد درويش: ؛ صحيفة اللغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية؛ تاريخ: ٢٠١٣/١١/٢٣م، ومنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، تاريخ: ٢٠١٤/١٠/٢٦م.

١١- أ.د.أحمد درويش، "أهمية اللغة العربية في المحافظة على الهوية وتوطين المعرفة"؛ صحيفة اللغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية؛ تاريخ: ٢٠١٣/١١/٢٣م، ومنتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، تاريخ: ٢٠١٤/١٠/٢٦م. وينظر كذلك: العمايرة، محمد حسن، ٢٠٠٠، الفكر التربوي، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.ص ٦٣-٧٩.

١٢- سى إف هوكيت وآر آسكر C.F. Hockett and R. Ascher ١٩٦٤ "الثورة الإنسانية" في الأنثروبولوجيا الحالية ٤: ١٣٥-١٦٨.

١٣- مايكل توماسيلو ١٩٩٩ "التكيف الإنسانى للثقافة" في مجلد الاستعراض السنوي للأنثروبولوجيا. ٢٨: ٥١٧.

١٤- المصدر نفسه؛ ٢٨: ٥١٦